بعد تصديقهُ لاول وهلة بل الذي يغلب على الظن ان الامر لا يخلو من صنعة وشيءٍ من الايهام والتواطؤ ولكن اصحاب هـذه الصناعة مع عدم انكارهم حدوث مثل ذلك يقولون انهُ يمكن ان يُحتاط لتمييز الايهام من الحقيقة. بيد انهُ على كل حال لا يمكن قبول كل ما يشاهَد والتسليم بصحتهِ الا بعد التحرز الشديد ولا يستحيل ان يكون هناك شيءٌ من الحقيقة سيكشفهُ المستقبل اذ الطبيعة تشتمل على امورٍ جمّة لا تزال مجهولةً عنـدنا وكثيرٌ مما يسبق الى الذهن انهُ من المحاليّات قد تحقق فعلاً ولذلك لا ينبغي التسرع الى الانكار كما انهُ لا ينبغي الاستسلام الى التصديق والله اعلم

ادب الدارس

﴿ بعد المدارس ﴾

(تتمـة)

وليس من غرضي فيما ذكر ان اصرفكم عن الاشتغال بآداب العربية والتوفر على اتقان علومها وإحكام الجري على اسلوبها ولا سيما مع بعثة اللغة في هذا العصر وإقبال المتأدبين واهل العلم من كل اوب على اقتباس فنونها واحراز اعلاقها علماً بما لها من المزية التي انفردت بها عن سائر اللغات فضلا عن ان اتقان اللغة عند كل امة مقدَّم على جميع العلوم اذ هي القالب الذي تُسبَك فيهِ المعاني والمرآة التي تمثَّل فيها صور الخواطر فما كان ذلك القالب اجمل تكويناً وتلك المرآة اصفى مآءً جآءت المعاني ابدع والخواطر اظهر وأنصع. ولذلك كان اشتغالكم بها واحكامكم لعبارتها واسلوبها

والتعمُّق في معرفة مفرداتها واحكام مجازها واشتقاقها من اعون الذرائع لكم على بلوغ الغرض من التأليف فيها ونقل العلوم المذكورة اليها لانكم بذلك تستطيعون ان تصوّروا المعاني بصُوَرها وتلبسوها اثوابها الخليقة بها وتستنبطوا لها الالفاظ التي لم يسبق لها وضع في هذه اللغة مما حدث بعد عهد اربابها . وانما الذي ينبغي ان تجتنبوهُ فيها الايغال في تقصّي مذاهب النحاة واستقرآء ما قيل في كل مسئلة مما لا فائدة فيهِ للعقل ولا زيادة تبصرة في الاستعمال اذ وجه الاستعمال على جميع الاقوال واحد والمُجمَع عليهِ من الوجوه الفصيحة منصوص عليهِ في اماكنهِ مما عرفتموهُ . ويتصل بذلك التنقيب عن الانواع والجناسات البديعية وتوخيها في صوغ الكلام من النظم والنثر فان ذلك هادمٌ لاركان البلاغة مشوّهٌ لمحاسن وجوه الفصاحة لما يقتضيهِ على الغالب من التكلف والخروج بالكلام عن وجههِ الا ما جاءَ منهُ اتفاقاً او على غير كلفة فانهُ يُعَدّ من المحسّنات وحسنهُ يكون بقدر قربهِ من النظم الطبيعي . الا ان هذا قلما يُعتدّ بهِ في نظر البليغ اذ العبرة بأُصول المعاني التي يُبنَى عليها الكلام لا بالتحسينات اللاحقة الواردة مورد الزينة على ما نبهت على ذلك كلهِ علمآء البديع . ولهذا كانت المحسّنات المعنوية اعلى من المحسّنات اللفظية لرجوعها الى المعنى الذي هو المقصود من الكلام فضلاً عن ان اللفظية كثيراً ما يكون المعنى فيها مستعبَداً للفظ لاقامة الجناس او الفاصلة وانما يطلبها على الغالب من لاغنآء عندهُ في المعاني فيموّه على الاسماع بهذه السفاسف التي لا تثبت على النقد ولا محصول منها في الفهم

ولقد رايت من الناس من التزم السجع والجناس حتى في التقريرات العلمية وكتب التاريخ ونحوها مما قيّد الكاتب فيهِ باغراض وحقائق لا متّسَع لهُ عنها ولا محل فيها للزخرفة والخيال وبهذا تعلمون قدر ما أُولع الناس بهذا المذهب السمج . ولا حاجة بعد هذا الى ذكر ما بلغوا اليهِ من ذلك في الخطب والشعر مما استغرقوا فيهِ المذاهب ولم يتركوا غايةً الا اتوها حتى صار السامع اذا تُلي عليهِ كلام كثير من اولئك ظنهُ ضرباً من تصريف الكلم او باباً من ابواب الاشتقاق واصبحت المعاني الشعرية كانما مُسِخت فاستحالت جناساتٍ وانواعاً وصار من تناول منها شيئاً تاه على امرئ القيس وابن ابي سُلمى ولم يعدّ المتنبي ومن في طبقتهِ شيئاً . ومهما يكن من مذاهب الشعرآء فاني لا ارى لاحدٍ منكم ان يتعلق قول الشعر ويضيع اوقاتهُ في معاناتهِ لان احدكم احوج الى علم يستزيدهُ وليس في احدكم فضلةٌ لان يُخرِج من قريحتهِ ما يأخذهُ الناس عنهُ . واذا لم يكن في الشعر ما يستفاد من حكمةٍ او ادب او ما يعجب من ابتكار معنى او ابتداه نكتة وكان قُصارَى ما يدور عليهِ الوزن والتقفية فما اقلها جدوى تُسهَر عليها النواظر وتُكَدّ فيها الخواطر ثم لا يكون ورآءها الا اصواتٌ يمكن ان يؤدّى مثلها بنقر الدُفّ ووقع مطارق القصّارين . واذا كان فيكم الشاعر المطبوع يجيش في خاطرهِ الشعر فلا يستطيع ضبطهُ فليصرفهُ في الاغراض الادبية او التاريخية او وصف شيء من الاحوال والمشاهد الطبيعية او ضبط شيء من قواعد العلوم دون التشبيب والمدح وما شاكل ذلك مما يذهب بالزمان سدًى ولا يُتناول منهُ فائدة

واعلموا ان المرء مفتونٌ ببنات افكارهِ فسواءٌ كتبتم شعراً او نثراً فلا تعجلوا الى نشر ما كتبتم ولا تكونوا من انفسكم على ثقة وان استحسنتم ما صدر من قرائحكم لاول وهلة ولكن ينبغي ان تكونوا لخواطركم متّهمين وتراجعوا ما كتبتم مراجعة الناقد المتعنت وان اصبتم في كلامكم ما ينبغي اطّراحهُ فلا تبتئسوا من ضياع جهدكم فيهِ ولا تحرصوا على كثرة ابيات القصيدة ولا على توفُّر الجمل وتعدُّد السطور فانهُ لم تُعَب قصيدةٌ قطّ بقلة ابياتها ولا مقالةٌ بقصر لفظها ولكنها تعاب بغلطةٍ واحدة او لفظٍ ركيك او معنًى في غير محلهِ فتسقط لذلك برمتها . ولا بأس عليكم ان تضعوا كلامكم بين يدي من تثقون بعلمهِ لينبهكم الى ما فيهِ من العيوب فان نقد واحد من الاصدقآء ومناصحتهُ في الستر خيرٌ من تنديد جماعاتٍ من الاعدآء والحساد على رؤوس الاشهاد . وكلكم يذكر شأن الشاعر الكبير زهير بن ابي سلمى وما كان يفعلهُ من عرض قصائدهِ على اصحابهِ الشعرآء والتوفر على تنقيحها حتى يأتي على القصيدة منها حول كامل ولذلك لُقّبت قصائدهُ بالحوليات ولم يكن يستحيي من ذلك ولا أُتي من جهتهِ قط فضلاً عن انهُ كان معدوداً في جملة فضائلهِ يؤثر عنهُ الى هذا اليوم

وفي الختام اوصيكم بالمحافظة على ولآء هذه المدرسة التي هي موضع نشأتكم ومجمع أُشُدّكم وفيها غُذِيَت احلامكم ومنها نبضت لكم مناهل الدراية والرُشد ومن اشعتها اقتبست بصائركم ما تسيرون في ضوئهِ سحابة العمر وعلى الجملة فهي التي اتمّت لكم ما رزقكم الله من نعمة العقل واكملت فيكم فضل النطق ووصلت ايديكم باسباب النجاح ونهجت في وجوهكم سبيل

الفلاح وارسلتكم رجالاً يتدرجون في مراقي الفضل والعرفان ويحلون محلهم من اندية العمران واعلموا انها لن تزال عصمةً لكم تأوون منها الى ركن عزيز كما آوتكم من قبل في حرزٍ حريز فكونوا عند ما يفرضهُ عليكم الوفآء من تذكر نعمآئها وما تتقاضاكم الذمة من الاقامة على صدق ولآئها ولا تغفلوا عن عرفان ما لغبطة مؤسسها العلاّمة المفضال من الايادي البيضآء واجمال الثنآء على تشييدهِ لكم هذا المقام الذي فيهِ تعلمتم صوغ الكلام وتحبير الثنآء وتعهُّدهِ لكم بالعناية وجميل الرعاية في حالتي المشهد والمغيب وإفآءة ظل فضلهِ عليكم واحسانهِ اليكم ليبلّغكم من الفوز اوفى نصيب لا زال كوكباً للشرق تُرسل اشعة هديهِ في الاقطار وتسير بفضل نورهِ متحيرات الابصار

وهذا اليوم موعد تفرُّقكم الذي بهِ يحلّ عقد هذا النظام وينوب اجتماع كلٍّ منكم بذويهِ عن اجتماعكم في هذا المقام فكونوا على القرب والبعد اخوان صدق تجمعهم نسبة الادب ووحدة الطالب وتضمهم رابطة الوطنية وجامعة العثمانية حتى تكونوا كالبنيان المرصوص يشدّ بعضهُ بعضاً في احيآء آثار العلم والتفنن وتوثيق اسباب الحضارة والتمدن في ظل دولتنا العلية الباذخة الاركان القائمة تحت لوآء مولانا السلطان عبد الحميد خان ايَّد الله دولتهُ وأيَّد بهِ دعائم العدل والامان وجعل ايامهُ تاجاً على مفرق الدهر كما جعل ذاتهُ تاجاً على مفرق الاكوان . اللهمَّ آمين